

# ساحر الشمال

أو

سيرولتر سكوت

١٧٧١ - ١٨٣٣

لأستاذ عبر الرازي صميرة

من يزور المدينة الرمادية القديمة « مدينة إدنبرة » ويمشى في الشارع الرئيسى فيها يرى أنبل نصب وأنخم بذية أقيمت لذكرى أديب فى أى عصر من العصور أو بلد من البلدان ، ويرى تحت قبة هذا النصب تمثالا من الرخام الأبيض لرجل ذى منزلة لم يظفر بها كثير غيره فى الأدب ، حتى رأى كثير من الناقدين الإنجليز أن اسمه جدير أن يحىء فى سجل الفخار الذى يحوى أسماء أدبائهم تاليا لاسم شكسبير ، ذلك الرجل هو « ولتر سكوت » أو « ساحر الشمال » .

ولد هذا الأديب العظيم فى مدينة « إدنبرة » فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٧١ وكان أبوه محاميا ، وجده لأمه أستاذا فى الجامعة ، وكان أبوه موسرا ذا سعة . فأنفق على تربية ابنه من سعته ، وكان الغلام « ولتر » صحيح الجسم قوى البناء ، إلا أنه أصيب بحمى تركت رجله اليمنى مشلولة ولم يفلح فيها أى دواء . فظل سكوت بعد أعرج مريضا ، وقد أرسله أبوه وهو مريض إلى مزرعة جده فى سميلهولم « Smailholm » عسى أن ينفعه هواء الريف أو يذهب عنه الآلام .

## في سكيلهولم

رأى سكوت نفسه في مقاطعة من مقاطعات الحدود بين إنجلترا واسكتلندا، وكانت الحرب بين البلدين دائمة مدة أربعة قرون، ولم يكن يخلو مكان في هذا الجزء من اسكتلندا من حديث الحرب، والقصص الطريفة حول البطولة وأحاديث الشجعان، وأخبار الغارات التي كان يشنها بعضهم على بعض، ونغارهم بما يحرزون من انتصار، أو يرجحون من مغنم، وإشاداتهم بما يأتیه أبطالهم من ضروب الفروسية والشجاعة. وكانت هذه الأحاديث والقصص ملهى للفلاحين يتحدثون بها في أسفارهم، وتدور حولها أغانيهم وأناشيدهم.

وقد أغرم «سكوت» بسماع هذه القصص، ومالت نفسه إليها ميلًا طبيعيًا، وكان ذا قدرة عظيمة على التخيل، فاستطاع أن يملأ دور الأبطال بمن عمروها في سالف الأيام، وأن يلبس هياكلهم ثيابًا موشاة من بدائع قلبه وخياله، وأن يبعثهم في قصصه وقصائده إلى الحياة، وكانت لهذه الحكايات آثار قوية ظاهرة في رواياته، فقد استمد منها كثيرا من الحوادث والشخصيات، وأسبغ عليها عبقريته وخياله ما جعله مسطورا في سجل الخالدين.

## سكوت في المدرسة

لما بلغ سكوت الثامنة من عمره أرسله أبوه إلى المدرسة في «إدنبرة» وبتهمه كثير من الكتاب بالغباء في طفولته. والحق أنه لم يكن كذلك، إنه كان يكره المدرسة ويكره واجباتها، ولم يكن من الذين يعكفون على الكتب المدرسية يعيدها ويبيديها، غير أنه كان ممتازا بحضور ذهنه، وقوة ذاكرته، وكان امتيازاه في ميدان الألعاب باديًا واضحا، وكان تفوقه في اللعب أكثر من تفوقه في حجات الدراسة، وكان يميل إلى المشاجرة والقتال مع أبناء الجيران. وكان يقضى كثيرا من وقته في تسلق جنبات الطريق المؤدى إلى «صخرة القلعة» في ضواحي إدنبرة. ويحدثنا بعض مؤرخي حياته أنه كان

ممتازاً على أبناء المدرسة جميعاً بقدرته على قص القصص ، وسرد الحكايات .  
وقد نشأت بينه وبين تلميذ اسمه « جيمس بالانتاين » صداقة متينة وهو  
في المدرسة ، وبقيت إلى أخريات أيامه ، وقد أصبح بالانتاين فيما بعد ناشر  
روايات سكوت ، ثم زميلاً له في إدارة مطبعة ، وخسر سكوت من وراء تلك  
الشركة خسرانا مينا .

كان سكوت كلما انتهى من درس المدرسة يدعو إليه صديقه بالانتاين قائلاً:  
تعالى إلى ياجامى ، فسأقص عليك حكاية . وكانت كل حكاياته تدور حول  
أخبار الفرسان ، وأيام الشجعان ، ومواقف الأبطال .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره لقي شاعر اسكتلندا العظيم  
بيرنز Burns وكانت تلك المقابلة هى الأولى والأخيرة بينهما - فى بيت أستاذ  
من أساتذة الجامعة ، وكان معهما كثير من ذوى المكاتب فى المدينة . ورأى « بيرنز »  
على جدار الحجرة التى كانوا فيها صورة استرعت انتباهه ، ورأى تحتها أياتامن  
الشعر فسأل عن قائلها وعن القصيدة التى قيلت فيها ، فما أجابه إلا الغلام « سكوت »  
فدهش أن يسمع الجواب الصحيح من يافع مثل سكوت . وتنبأ له بمستقبل  
عظيم .

#### فى الجامعة

انتهت أيام سكوت فى المدرسة فالتحق بالجامعة ، ولكنه لم يكن يحب  
الدراسة الرسمية وقيودها ، فانصرف عن دروس الجامعة . وفضل أن يهيم فى  
الجال المحيطة بإدنبره يناجى أحباءه من فرسان الأيام الخالية ، ويستعيد ذكرى  
الأبطال والشجعان وجماليات العقائل الذين سمع بهم وبأساطيرهم فى حديثه .  
واستطاع فى تلك الفترة أن يتعلم اللغة الإيطالية عساه يستطيع أن يقرأ ما كتبه  
الزاهون من شعراء إيطاليا حول البطولة وأخبار الفرسان .  
ولما غادر الجامعة التحق بمكتب أبيه ليتخرج عليه فى المحاماة ، وكثيراً

ماذهب إلى الأراضي المرتفعة المعروفة بالـ « High Lads » لقضاء أعمال خاصة بمهنته . فكان لما رآه هناك من مناظر فاتنة ساحرة أثر عظيم عليه : لقد أحب هذه البلاد ، وأحب الحديث إلى أهلها على اختلاف طبقاتهم ، فتحدث إلى الصغير والكبير ، وإلى الغنى والفقير . واستمع لقصصهم الريفية ، وحكاياتهم الطريفة ، وكان يصغى بكل جوارحه إلى ما كان منها خاصا بالحدود ، أو الأراضي المرتفعة أو مدينته الساحرة « إدنبرة » التي ربا فيها ولیدا ، وقضى فيها من عمره سنين . وفي سنة ١٧٩٢ أصبح سكوت محاميا ، وكان عمله فيها قليلا جدا ، فكان يذهب في أوقات فراغه إلى مقاطعات الحدود ، حتى كاد يعرف كل شبر من أرضها ، وكان يجمع في رحلاته كل ما يصل إلى سمعه من أناشيد أو قصص ، وكانت رحلاته لدراسة أحوال الناس في تلك الجهات .

وكان سكوت رفيقا يؤنس المجلس ، ويسر الأصدقاء ، فكان يقابل بالترحيب والإكرام أنى أقام .

### زواجه

وبعد خمس سنوات من اتخاذ المحاماة مهنة تزوج من فتاة جميلة اسمها « شارلوت كارينتر » وكان زواجه سعيدا ، فتفرغ لعمله العظيم كاديب ، وترجم ونشر كثيرا من الشعر الألماني . وأخذ يستعد لإخراج مجلد يحوى بين دفتيه كل ما استطاع أن يجمعه في رحلاته من أناشيد البطولة (١) .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب كان سكوت قد اختير قاضيا في مقاطعة Rox burgh روكسبيرج . وكان عمله قليلا فصرف الزائد من وقته في عمل هذا الكتاب ، وعندما أتم إعداده للطبع قام بنشره صديقه باللاتين ، وذلك سنة ١٨٠٢

(١) تقصد بها ما يسمى بالانجليزية Ballads وهي أغنيات من الشعر القصصى تدور على السنة العامة ، ويتغنون بها بمجيدا لأبائهم وشجعانهم في الحروب السالفة أو هي « ملاحم عامية قصيرة » وهي أشبه ما تكون بالمواعيل

فقبل الكتاب بالثناء العظيم، ورجح منه ثمانين جنيهاً . ورجح فوق ذلك عدداً من الأصدقاء والمعجبين . ومن بينهم عدد من قادة الأدب في عصره ، وعلى الرغم من ذبوع صيته كمؤلف فإنه لم يتخل عن عمله القانوني ، غير أنه ترك إدنبره وأقام في الريف .

### سكوت في الريف

اتخذ له بيتاً على ضفاف نهر « تويد » . وكان يحب هذا النهر حباً جما فجاوره ليمتع سمعه وبصره بغناء هذا النهر الجميل ، وما على ضفتيه من جمال طبيعي فتان . وفي هذا البيت انصرف إلى الرياضة الريفية ، وتربية الأغنام ، وبعد مدة قصيرة من إقامته ، نشر قصيدته المسماة « مكانة الموسيقى الأخيرة » ، فأصبح بين عشية وضحاها ، معروفاً من جميع القراء ، وأصبحت القصيدة حديث الناس أجمعين .

كانت هذه القصيدة قطعة من الشعر العذب الجميل . وكانت قصة شائعة في قالب شعري ، ولم يكن للناس عهد بمثلاً في الجمال ، ولا بمثل صاحبها في القدرة على سرد القصة وتنسيقها منذ تشوسر Chaucer وقد سر منها كل من قرأها ؛ لقوتها وخصبها ، أما أشخاصها فكانوا من النبلاء الشجعان ، وكانت أغانيها على درجة عظيمة من الدقة والجمال ، أما وصف الطبيعة فكان آية في الحسن والرفقة . لقيت هذه القصيدة نجاحاً عظيماً ، ورجح منها شاعرها سبعمائة وخمسين جنيهاً وكانت فاتحة خير وبركة عليه وبشيراً بمستقبل زاهر ينتظره .

### أول رواية كتبها سكوت

وقد بدأها في ذلك العهد ، عهد اتصاله بصديقه بالانتين وقد أرى بعض فصولها لصديق كان يثق في ذوقه الأدبي فلم يتنبأ لها هذا الصديق بقبول حسن من الجمهور ، ونصح « لسكوت » ألا يضع وقته في مثل هذا العبث ، فأصغى إلى نصحه ، وترك النثر وولى وجهه شطر النظم مرة ثانية .

## قدرة سكوت على العمل:

ما كان أقدره على العمل ! وما كان أصبره على التعب ! فإنه عندما كان في « آشتيل Achesiel » كان يصحو كل يوم في الخامسة صباحا ويجلس إلى مكتبته في السادسة ، وكتبه مصفوفة حوله على الأرض وكلبه العزيز عند أقدامه ، وعندما يحىء موعد الإفطار يكون قد « كسر ظهر » عمله اليومى ، ويصبح حرا طليقا في الظهر ، ثم ينصرف بعد ذلك إلى مزاولة بعض أنواع الرياضة الريفية التي كانت محبة إلى نفسه .

وعندما كان في إدنبره كان لا يهجع إلا قليلا من الليل ، وكان يقضى ذلك الوقت كاتبا مؤلفا ، وكثيرا ما رأى أصحابه خيال يده على ستائر النافذة في السحر ، وهو يضم صفحة إلى صفحة من مخطوطات مؤلفاته .

وفي فبراير سنة ١٨٠٨ نشر قصيدته « مارميون Marmion » التي تعتبر أعظم ما كتبه سكوت من الشعر ، وقد أنفق في كتابتها كثيرا من وقته وراحته ، وتطلع الجمهور بشغف إلى ظهورها وقد عرض « كنستابل Constable » أكبر ناشر في إدنبره ألف جنيه على مؤلفها قبل أن يراها ، وقد لاقت على الرغم مما رآه فيها بعض الناقدين من عيوب - نجاحا أى نجاح .

في تلك السنة شجر بين سكوت وبين كنستابل خلاف أدى إلى أن يترك الأول الأخير ، ويتصل بشركة جيمس بالاتين للنشر . وكانت أول قصيدة نشرها عندهم هي « سيدة البحيرة » وهي أشهر القصائد الطوال لهذا الشاعر العظيم وأحبها إلى الجمهور . وقد قوبلت أحسن استقبال منذ نشرها ، وبيع منها عشرون ألفا في عام .

وقد كانت المنطقة الجميلة ما بين « كالندر Cealander » وبحيرة كاترين Loch Katrine - مجهولة ومجهولا جمالها من السائحين . فلما نشرت تدفق الناس إلى تلك المنطقة ومعهم قصيدة « سيدة البحيرة » كمرشد يهتدون به إلى جمال ذلك الإقليم .

وعلى الرغم مما جاءت به هذه القصيدة من ربح ، فقد كانت دار الطباعة والنشر التي يملكها باللاتين سائرة في طريق الإفلاس ، لما نشرته من كتب كأسدة ثقيلة ، لا يرضى الجمهور أن يقتنيها ، ولو قدمت إليه بلا ثمن ، ولم يكن الدافع لها على نشرها إلا عطف « سكوت » وإشفاقه على البائسين من أدعياء التأليف والإنشاء .

وعلى الرغم من هذا فقد استطاع سكوت في تلك الفترة أن يشتري مقاطعة « أبو تسفورد Abbotsford » على ضفاف التويد ، بأربعة آلاف من الجنيهات ، وبني فيها بيتا جميلا ملاء بالدروع والصور ، وأنشأ حولها جنات وغابات كلفته كثيرا من النفقات ، وابتلعت كل ما كان يربحه من كتبه الرائجة .

وفي هذا المنزل الجديد كتب سكوت قصيدتين قويتا بفتور وإعراض وأحس بانصراف الناس عنه إلى صوت قوى جديد ظهر به شاعر آخر عاليا مدويا في سماء الشعر هو « لورد بيرون Lord Byron » وأحس سكوت بتفوق منافسه الجديد ، فأنى عليه حياؤه إلا أن ينصرف إلى النشر ويترك قول الشعر لمن هو أطول باعا وأقوم قيلا .

### العظيم المجهول :

كان سكوت يقلب ذات يوم في المخطوطات المكسدة في مكتبته ، فوجد روايته المسماة « ويفرلي » التي بدأها منذ أعوام ، ثم انصرف عنها بعد أن نصحه أحد أصدقائه كما تقدم . قرأها بعناية وقرر أن يتمها ويذيعها في الناس ولا يكتب اسمه عليها إذ أنه لم يكن واثقا من نجاحها ، ولم يكن يحب أن يسيء إلى نفسه ، ويحط من قدرها بعد أن عرفه الناس شاعرا عظيما . تمت الرواية في ثلاثة أسابيع ، ونشرت في يولييه سنة ١٨١٤ فتقبها الجمهور أحسن قبول ، وأجهد الناس أنفسهم لمعرفة اسم المؤلف ؛ ولما لم يصلوا إلى نتيجة أطلقوا على المؤلف « العظيم المجهول »

كانت هناك روايات تاريخية كثيرة قبل ويفرلي ، ولكن لم يستطع مؤلف قبل سكوت أن يحيي العظام الرميم ، ويبعث السابقين من الأبطال في عصرهم بقوة الأدب وسمو التصوير ونبل الأسلوب ، وكانما كان يحس القراء بعودتهم إلى العصور الخالية، ويرجعون بأنفسهم القهقري ، ليروا حياة آبائهم السالفين . وقد كانت فيها القصص الممتعة والأساطير الشاقة والاستطراد المحبوب ، ووصف الطبيعة وصفا يعورها أبداع تصوير ، والمعرفة العميقة بالناس رجالا ونساء . وقد ملئ الناس بها إعجابا وسرورا، وارتقبوا رواية أخرى على طرازها فكتب لهم ما أرادوا في ستة أسابيع ونشرها باسم ( جاي مانرنج Guy Mannering ) وهلل الجمهور وصفق لطلعتها ، وأقبل المال وتدفق على صاحبها ، وزالت متاعبه وأزماته ، وأنفق عن سعة على مزرعته في أبو تسفورد ؛ وكانت هاتان الروايتان الثمرة الأولى للناحية الجديدة التي جرب فيها سكوت قدرته الأدبية، وهي كتابة الروايات .

وفي السنوات العشر التالية تدفقت رواياته بسرعة مازالت تدهش الكثيرين الذين يعجبون من مقدرة رجل واحد أن يفعل هذا . وبقي سر المؤلف مكتوما حتى فشا أخيرا ، مع أن سكوت لم يبح به إلا في سنة ١٨٢٧ وأصبح أشهر الكتاب وأكثرهم حظوة عند القارئين ، وزار لندن والقارة الأوروبية ، واستقبل أحسن استقبال أينما حل . واشتغل بجهد بعد عودته إلى أبو تسفورد وظهرت رواياته تترى . وقرأ الناس ما كتبه في إنجلترا وفي أوروبا ، وتملقه الأكابر والأتعاب ، ورجح ما يزيد على عشرة آلاف جنيه سنويا . وخلع عليه الملك لقب ( بارون ) في سنة ١٨٢٠

ولكن مرضا أَلَم به وسط النجاح جاءه منذرا ، فلم يخفف عن نفسه، ولم يرفق بها فأملى روايتين في مرضه .

أيامه الأخيرة :

قصة حياته في السنوات الأخيرة محزنة ، ولكنها تبدى الرجل العظيم في خير حالاته . فقد رأيناه من قبل كاتباً عبقرياً ، ومحسن طيب القلب ، والآن نراه وقد مسته الأساء والضراء ! وإذا كان شكسبير قد قال كما قال أبو الطيب في شدته :

« جزى الله الشدائد كل خير »

فقد خرج سكوت من شدته بطلاً ، ففي يولييه سنة ١٨٢٦ هـ طلت عليه المصائب ، وأصابه الفقر من جراء اشتراكه في شركة النشر والطباعة مع صديقه باللاتين ، وخرج مديناً بآلاف الجنيهات ، فاحتمل المحنة صابراً ، وقابل الشدة رجلاً ، وتمثل بقوله هو : « لقد جئنا عراة إلى هذا العالم ، وسنخرج منه كما جئنا ، والحمد لله ! » وطلب منه قوم أن يشهر إفلاسه فأبى وقال : هذه اليد اليمنى ستزيل ما بي من شدة . ولكنه كان قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً ، وكان في حاجة إلى الراحة والعيش الهنيء ، فلم يستسلم إلى الدعة وآثر العمل ، غير أن صحته المجهدة المعتلة لم تحتمل ، ولم تنفعه رحلته إلى إيطاليا ليشتمع بهوائها ، وزاد اعتلاله ، ودفعه حنينه إلى أبو تسفورد أن يعود إليها ففعل ، وبرى بعض البرء ، وأصبح قادراً أن يستمع إلى ما يتلى عليه من الإنجيل ، وحاول أن يكتب ، فسقط القلم من يمينه ، فاستلقى في كرسيه باكياً صامتاً .

وفي منتصف الساعة الثانية من ليلة ٢١ سبتمبر قضى نحبه بين أولاده . لقد كل يوماً جميلاً ، دافئاً ، وكان هادئاً ساكناً ، وكانت أغاني نهر التويد الحلوة وخريف أمواهه تتردد في سمعه حتى أطبق أجفانه . وبهذا تنتهي قصة حياة « ساحر الشمال » الذي يعتبر نغماً للأدب الإنجليزي ، فوق عظمتة وإحسانه .

وإذا كان جورج الرابع منحه لقباً ، فقد جعله الله نبيلاً . وإذا كان العظيم المجهول في حياته ، فسوف يبقى مابق اللسان الإنجليزي ، العظيم الذي لا ينسى .

( يتبع )

عبد الرزاق صهيبة